ظاهرة المعراج الروحي في شعر الأمير عبد القادر:
قصيدة (مسكين من لم يذق طعم الهوى) نموذجا

د. عائشة عمار

جامعة حسيبة بن بوعلي– الشلف(الجزائر)

ملخص المقال:

لا يعزب على القارئ أن الأمير عبد القادر من الشعراء الجزائريين الذين تميزوا بكتابات صوفية شكلت همزة وصل بين عالمين متكاملين (عالم الشهادة وعالم الغيب)، فأضفى بذلك بصماته الفنية في تحقيق هذه الكتابة القدسية و تعميق المعنى السامي الذي تتضمنه، فتمخضت أبياتا مرصعة بصور شعرية تتضمن نفحات روحه الداخلية و نفسه الطاهرة و فكره المميز.

و لأن منطلقات التصوف قوامها المجاهدة التي ينبغي أن يتحلى بها السالك المريد ، استدعى الأمر البحث في المنازل المحمودة (المقامات) التي استوقفت الشاعر و هو يتطلع لبلوغ منتهى الأفق الروحي (المعراج الروحي) و الترقية إلى التكامل المعنوي و الروحي، و كذا الأحوال التي حلت بقلبه انطلاقا من التحديدات الإشكالية التالية:

كيف تذوق الأمير عبد القادر المنازل المحمودة ؟ أو بمعنى آخر ما هي المقامات السلوكية التي استوقفته ؟ وما هي الأحوال التي حلت بقلبه و التي من خلالها تسنى له المعراج الصوفي إلى ذروة الحقيقة المستترة في عالم الغيب.

الكلمات المفتاحية: الأسرار الإلهية ، المعراج الروحي ، المقامات ،الأحوال...

الملخص باللغة الإنجليزية :

It goes without saying that Emir Abd-el-Kader is one of the Algerian poets who had exceled Sufism writings that was a bridge between two different worlds (The existent world, and the unseen world). By so doing, it added an aesthetic print in fulfilling the divine writings and deepen the high meaning. Thus, it resulted into and gave birth to verses full of imagery and mirrors the genuine, and pure souls within. Not only souls, it bestowed his thoughts as well. And because the Sufism foreground is its resistance, an attitude that should be displayed by it's seeker. One felt obliged to journey into the poetic feelings that stopped the poet looking forward to achieve the ultimate spiritual horizon, and upgrade to a moral and spiritual integration, and as well as the circumstances that befell his heart. Following this problematic.

What were the behavioral attitudes that stopped Emir's thoughts? And what had befell on his feeling through which he could uplift to the peak of the unseen world.

نص المقال :

إن الأمر الذي لا مرية فيه هو أن الصوفي اجتهد في التنقيب عن الحقائق الغيبية والأسرار الإلهية ملتمسا إماطة اللثام عما انحجب عنه من أسرار علية، الأمر الذي جعله بحاجة إلى لغة تعينه في التعبير عن مسيرته الصوفية وأحواله الوجدانية والتي كانت تلوح بقلبه في ارتحاله الذوقي إلى عالم الطهارة والصفاء .

و لا يعزب على القارئ أن الأمير عبد القادر من الشعراء الجزائريين الذين تميزوا بكتابات صوفية شكلت همزة وصل بين عالمين متكاملين (**عالم الشهادة و عالم الغيب**) ، فأضفى بذلك لمسته المتميزة في تجسيد هذه الكتابة القدسية و تعميق المعنى السامي الذي تتضمنه ، فما كان إلا أن نفث من شعره أبياتا مرصعة بصور شعرية ساكبا عليها من نفحات روحه الداخلية مسحة جمالية، إذ اخترقت تجربته الصوفية هذه الرؤية للعالم هادفة إلى بلوغ الحقيقة العلية المقدسة والوصول إلى السعادة القصوى، ملتمسا من هذه النظرة البحث عن الحقيقة المخبأة خلف تلك الموجودات الكونية.

– ظاهرة المعراج الروحي في شعر الأمير عبد القادر : قبل التحري في ظاهرة المعراج الروحي عند الأمير عبد القادر حري بنا أولا إبانة مصطلح المعراج في مفهومه العام بالتطلع إلى بعض المفاهيم اللغوية التي أثارها علماء اللغة.

إذ يكشف ابن منظور على أن ((المعرج، المصعد و المعرج : الطريق الذي تصعد إليه الملائكة. و المعراج : شبه سلم أو درجة تعرج عليه الأرواح إذا قبضت ...)) [1]

وقد قيل : ((لو جمع على المعاريج لكان صوابا ، فأما المعارج فجمع المعرج ، قال الأزهري : و يجوز أن يجمع المعراج معارج. و المعراج : السلم، ومنه ليلة المعراج ، و الجمع معارج و معاريج ، مثل مفاتح و مفاتيح ، قال الأخفش: إن شئت جعلت الواحد معرجا ومعرجا مثل مرقاة و مرقاة. و المعارج : المصاعد ، و قيل : المعراج حيث تصعد أعمال بني آدم. و عرج بالروح و العمل :صعد بها.) [2]

ولكن المعراج المقصود هنا غير المعراج المحسوس الذي حدث مع خير الأنام محمد صلى الله عليه وسلم، و إنما المعراج المستهدف هنا هو تجاوز السائر كل ما قد يعيقه من شهوات قد تحيل

بينه و بين ربه، ذلك أن الوصول إلى ذروة الحقيقة (**الحقيقة المطلقة**) يستدعي من السالك المريد التجرد من لباس المعاصي و التحلي بالمقابل بلباس التقوى و الإيمان .

و للأمير في هذا السياق وقفة يدعو فيها السالك قائلا :

فَفارقْ وُجودَ النَفْس تَظْفَرْ بالمُنا وَ زايلْ ضلالَ العَقْل إذْ أَنهُ الحَبْسُ [3]

فـ((قد يتوهم متوهم أن السالك سائر إلى الله في مسافة محسوسة ، و أن الوصول إلى الله وصول محسوس)) [4] ،ولكنّ الفؤاد وحده هو الذي بإمكانه التطلع إلى جمال الخالق ومن ثمّ المشاهدة أين تجتمع تلك المتصورات الكونية المتعددة في مشهد واحد يعد مؤسّسها الفعلي الذي انبنت عليه.

إذن، و انطلاقا من هذا التفكير الأنطولوجي "إنّ الوجود كله مظهر لتجلي الخالق المحتجب بالمظاهر الكونية "، ،كان لزاما على الصوفي التحرّي في حقيقة هذا العالم لفهم ملغزاته وإماطة اللثام عن تلك الثنائية الجدلية بين الحضور والغياب ، إلا أن في رؤيته للعالم الواسع تعجز عباراته عن الإفصاح لمشاهد العالم، إذ ((كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة))[5]، فلم يكن من سبيل لدى الصوفي إلاّ طريق الذوق والكشف عن الوحدة الإلهية ،ذلك أن ((المشاهدة رؤية الذات اللطيفة في مظاهر تجلياتها الكثيفة، فترجع إلى تكثيف اللطيف، فإذا ترقّى الوداد، ورجعت الأنوار الكثيفة لطيفة فهي المعاينة، فترجع إلى تلطيف الكثيف، فالمعاينة أرق من المشاهدة وأتم، والحاصل أنّ شهود الذات لا يمكن إلاّ بوساطة تكثيف أسرارها اللطيفة في مظاهر التجليات، إذ لا يمكن إدراك اللطيف ما دام لطيفا، فرؤية التجليات كثيفة المشاهدة، وردها إلى أصلها بانطباق بحر الأحدية عليها معاينة وقيل: هما سواء))[6]، بهذا المعنى تكون الرؤية لذات الألوهية خارج هذا العالم وخارج تلك الموجودات المناطة به وهذا ما يحقق وحدة الشهود لدى الصوفي ذلك أنّ ((وحدة الشهود، هي القمة الهرمية للعروج الصوفي، وكلما اقترب الصوفي منها، قلّت رؤيته للكثرة وتكثّفت رؤيته للوحدة وازداد تهافت المحسوسات وتلاشيها، وبرز المعنوي واللطيف مكانها، ومرة أخرى هي مسألة رجوع، وعد تنازلي وعودة إلى رقم واحد الأصل المؤثر في جميع الأرقام))[7]

و لأن مادة التصوف قوامها المجاهدة الروحية التي يتبناها المريد، استدعى الأمر البحث في المقامات التي استوقفت الشاعر وهو يتطلع لبلوغ منتهى الأفق الروحي (المعراج الروحي) والترقية إلى التكامل المعنوي والروحي، وكذا الأحوال التي حلت بقلبه انطلاقا من التحديدات الإشكالية التالية:

كيف تذوق الأمير عبد القادر المنازل المحمودة ؟ أو بمعنى آخر ما هي المقامات السلوكية التي استوقفته ؟ وما هي الأحوال التي حلت بقلبه و التي من خلالها تسنى له المعراج الصوفي إلى ذروة الحقيقة المستترة في عالم الغيب.

أ – مفهوم المقام وصفاته في شعر الأمير عبد القادر: الواقع أنّ بلوغ ذروة المعراج الروحي مرهون بمعانقة المجاهدة الروحية و خوض معركة شاقة مع النفس الأمارة بالسوء، و هذا الأمر جعل روح الشاعر تتشبع غنى عن الخلق، بعدما أدرك أنّ الوصول إلى هذه الصفة ذوقيا هو ممارسته سلوكيا، وأنّ هذه الممارسة تستدعي منه خوض مشقة الطريق للظفر بالفوز العظيم.

فالشاعر قصد حضرة المحبوب بالمقامات المحمودة و الأحوال الوجدانية التي اتخذها وسيلة مهمّة تعينه على الارتقاء إلى العالم المطلق والسمو إلى الحضرة الإلهية أين يتحقق الوصال الروحي ذلك أن ((المقامات والأحوال بالنسبة إلى التوحيد كالطرق والأسباب الموصلة إليه، وهو المقصد الأقصى والمطلب الأعلى...وحقيقة التوحيد تجلّ عن أن يحيط بها فهم، أو يحوم حول حماها وهم، إذ هو بحر وقف بساحل العقول وامتنع على الأرواح والقلوب إلى كنه الوصول، وتكلم كلّ طائفة فيه –بعضهم– بلسان العلم والعبارة، وبعضهم بلسان الذوق والإشارة وما قدروه حقّ قدره، وما زاد بيانهم غير ستره، إلاّ أنّ أرباب الذوق لما كانت إشارتهم عن وجدان وبيانهم عن عيان، لاحت إشارتهم لأسرار المحبين لوائح الكشف المبين، وأذابت عباراتهم قلوب المتعطشين لذة برد اليقين)).[8] و ((لا يزال المريد يرقى من مقام إلى مقام إلى أن ينتهي إلى التوحيد والمعرفة التي هي الغاية المطلوبة للسعادة)).[9]

فالمقامات وباعتبارها القاعدة الأساسية للرقي الروحاني والمفتاح للوصول إلى الغاية المنشودة، جعلت الأمير عبد القادر يعبر أصدق تعبير عن حالته النفسية الباطنية شأنه في ذلك شأن الصوفيين الذين تحشّموا عناء السفر من أجل تحقيق مرادهم.

و إن لم يفصح الأمير عن منازلته المقامات المحمودة، غير أن الأبيات تتضمن هذه المنازل فمثلا مقام الصبر يتضمنه قوله:

وَلَيْسَ في طاقَتي الرُؤْيا لغَيْرهمْ وَ لَوْ قَلَتْني الوَرى في ذاكَ ،أَوْ شاحُوا [10]

فالواضح أن الأمير يعزف عن كل شهوات الدنيا و زخرفها مقابل الظفر برؤية المحبوب ،لا سيما و أنّ السالك المريد وحتى يحقق ما يصبوا إليه ينبغي له أن يتحرّر من قيود شهواته الدنيوية ويتخطّى كلّ العقبات التي تعيقه بالسيطرة على نفسه الأمّارة لأنّ الالتزام بمقام معيّن يفرض الانتباه واليقظة في كلّ خطوة يتخطاها في هذا المسلك الوعر الذي حاول العديد من السالكين

تجاوزه ولكن جذّت أعناقهم وبترت لانصياعهم لأوامر أنفسهم الأمّارة بالسوء، ذلك أن الروح متعطشة لأن تظفر بنور الحقيقة الإلهية، غير أنّ النفس تخالفها في التمسك بهذا الصبر فتصرّ الروح على تشبّثها مما يجعل الصراع قائما بين النفس و الروح.

كما نلتمس مقاما آخر تضمنته أبيات القصيدة و هو مقام التوكل الذي تجسد في قول الشاعر:

وَ اطْلُبْ إلَهَكَ ما تَرْجو، فَإنَ لَهُ خَزائنا ما لَها قَفْلُ، وَمفْتاحُ [11]

والتوكل لدى صوفية الإسلام هو نفسه المعنى العام الذي يقصد منه زرع الثقة بالله واليقين به مع سكينة وطمأنينة تلازم العبد وقلبه متعلّق بالله تعالى وهو ما يشير إليه أبو تراب النخشبي (ت245) بقوله: ((التوكل: طرح البدن في العبودية، وتعلّق القلب بالربوبية، والطمأنينة إلى الكفاية، فإن أعطي شكر، وإن منع صبر راضيا موافقا للقدر)) [12]

هذا القول يؤكد –إذن– العقيدة التي يجب أن يؤمن بها المرء وهي أنّ الله وحده من نلتمس إليه حاجاتنا، فهو المعبود بحق لا إله إلاّ هو بصفات الكمال والأسماء الحسنى المنزّه بها عن جميع خلقه.

فالأمير بصدد طمأنة السالك المريد ، متيقّنا بتحقيق حاجته من خلال توكله على الله وركونه إليه في طلب حاجته و هو بتوكّله هذا يكتسي ثوب العزّة والغنى وما يومئ بذلك هو سكون قلبه فتوكّله منوط برضاه، إذ جعل الوكالة للحق فسلّم أمره إلى خالقه .

الواضح أيضا أن تجلّي أنوار الفتح والفيوضات الرحمانية على الشاعر و كذا الأنس الذي كان يتلقاه من طرف المحبوب يومئ بالتزامه المقامات الدينية لاسيما وأن الرقي إلى التكامل الروحي يستدعي —كما أومأنا سابقا– تعايش النفس الأمارة بالسوء بمختلف الشمائل المحمودة.

ب– الحالات الوجدانية وصفاتها في شعر الأمير عبد القادر: استجمعت المحبة لدى الشاعر كل معاني النزوع العاطفي من الحب والوجد والشوق و الصبابة والسكر والصحو...وكلها أحوال عايشها الشاعر أثناء خلوته في الحضرة الإلهية المقدسة ، ذلك أن النزوع العاطفي – الذي تملك صوفية الإسلام — نحو التجليات الإلهية والحقائق الربانية هو الذي ميز مفهوم الحب عندهم كتجربة إنسانية ، إذ اتخذوا من هذا الحب وسيلة للارتقاء من عالم الشهادة إلى عالم الغيب.

و لولا الحب الإلهي الذي كان يتملكهم لما كان إقدامهم و شوقهم للبحث في هذه الحقيقة المحيرة و المستترة، فالعشق الإلهي شكل غاية الصوفي و هو يهفو لتجلي الحقائق العلية عليه، الأمر الذي استدعى منه محبة خالصة تنم عن شوق المحب وولعه.

1- حال المحبة: الواضح أن الأمير عبد القادر من الشعراء الصوفيين الذين ارتسمت في شعرهم علائم المحبة وأحوالها من خلال أبيات متعددة عبرت عما يسكنه من تلك المحبة. فكيف هو العشق الإلهي عنده ؟ و ما هي سماته ؟ و كيف هي طريقته في حبه لله تعالى.

الحب جوهر السلوك عند الصوفيين المقربين إلى الله و ها هو الشاعر هو الآخر، تبدو عليه علائم المحبة وأحوالها من خلال أبياته المتعددة والتي تعبر عما يسكنه من تلك المحبة يقول:

نَظَرْتُ حَسَن ، الذي لا شَيْءَ يُشْبِهُهُ فَما يَروقُ لقَلْبي بَعْدُ مَلاحُ [13]

فالشاعر يقر أنه لا شيء من الصور الكونية المناطة به يمكن أن يتمثل بحسن محبوبه و جماله وكماله وجلاله.

ولعلّ الأبيات التالية تعبر أصدق التعبير عن ما يختلج في نفسه من حبّ و هوى والتي تعجز الكلمات أن تعبر عنها، فما يسكنه يعجز اللسان التعبير عنه، إذ يقول:

غَرَقْتُ في حُبهمْ دَهْرا، أَلَمْ ترَني في بَحْرهمْ سُفُن –حقا–وَ مَلاحُ؟
أُريدُ كَتْمَ الهَوَى حينا فيَمْنَحُني تَهَتُكي ، كَيْفَ لا وَ الحُبُ فَضاحُ
لا شَيْءَ يَثْني عَناني عَنْ مَحَبَتهمْ وَ لا الصَوارمُ في صَدْري ، وَ أرْماحُ
قال العَواذلُ : فيكَ السحْرُ قُلْتُ لَهُمْ نَعَمْ وَ لي صحَةً فيه وَ إصْلاحُ [14]

يذكرنا الشاعر بزمن المحبة أين كان يتنعم بالفيوضات الرحمانية و الحقائق العلية...و الواضح أن حالته قد انكشفت ولم يعد ما يخفى منها، إذ بان عشقه الذي كان مخزونا بقلبه.

وحتما هذا السلوك قد تتخلله عقبات، يعمد إليها بعض اللائمين لإيقاف مسيرة المريد والحد من تحقيق آماله، غير أنّ كثرة اللوم لم تجد نفعا مع شاعرنا الذي عقد العزم على مواصلة الطريق إلى الحق تعالى مصرحا أن هذا الحب إنما يبعث فيه السلامة و الإصلاح. فإن كان حبّه كذلك، فكيف هو الشوق عنده؟

2- حال الشوق: يدرج الشوق ضمن سلك المحبة، إذ كلّما انغمر قلب المرء بالمحبة ازداد شوقا إلى لقاء محبوبه والقرب منه والهيام بمحبته وقد ((سئل ابن عطاء عن الشوق فقال: احتراق الأحشاء وتلهب القلوب وتقطع الأكباد)) وقال أبو عثمان علامة الشوق فطام الجوارح عن الشهوات)).[15]

والأبيات المدونة مرآة عاكسة لهذا الشوق و التي يفصح فيها الشاعر قائلا:

أَوَدُ طولَ اللَيالي إنْ خَلَوْتُ بهمْ وَ قَدْ أَدْبَرَتْ أَباريقُ وَ أَقْداحُ

يَروعُني الصُبْحُ إنْ لاحَتْ طَلائعُهُ يا لَيْتَهُ لَمْ يَكُنْ ضَوْءُ وَ إصْباحُ

ليَلْي، بَدَا مُشْرقا منْ حُسْن طَلْعَتهمْ وَ كُلُ ذا الدَهْرُ أَنْوارُ وَ أَفْراحُ [16]

فالشاعر بعد تذوّقه نشوة الحب و النفحات الإيمانية التي هبت عليه يفضّل طول الليالي، متخوفا من إطلالة الصبح و الذي بمجرد إشراقه تنجلي تلك الحقائق، و هنا إشارة إلى الصحو المنوط بالإفاقة والعودة إلى عالم الحس بعد الكشف والمعاينة. و هو في كلّ ذلك إنّما يلتمس القرب والتودّد من هذا المحبوب، وما كان ذلك إلاّ دليل واضح عن حالات السكر التي أصبحت تنتابه.

5- حال السُّكر الصوفي: لقد تحدّث الصوفية كثيراً عن الخمرة و اتّخذوها مجالاً لدراساتهم والتّعبير عمّا يختلج في أنفسهم، إذ عبّروا من خلالها عن ((غيبتهم عن الوجود في سكرهم ونعيمهم بمشاهدة الحبيب ولقائه، وانتهى بهم سكرهم إلى فنائهم في محبوبهم فناءً لم يشاهدوا خلاله غير جمال الحبيب، وهم في بحر الفناء الزاخر لا يحسّون بشيء من الموجودات لأنّ الإحساس قد فني بالنّسبة لهذه الموجودات، واتّجه بكلّيته لمطالعة جمال المحبوب، والصوفية يقولون إنّ الفاني لا يُحسُّ بما حوله، بل لا يحسّ بنفسه حتى لو أحرق بالنار لما أحسّ، لأنّه قد فني عمّا سوى الله))[17].

وكان عبد القادر ممّن تغنّوا بخمرة الوحدة الإلهية وبالسّكر الروحي، قائلا:

دَبَتْ حُمَيَاهُمْ في كُل جَوْهَرَة عَقْل وَ نَفْسُ وَ أَعْضاءُ ، وَ أَرْواحُ [18]

فالشاعر هنا يحاول أن ينبّه السّالك أنّ أمواج الحب قد غمرته حتى امتلأت أحشاؤه عشقا و صبابة، إذ احتلّ محبوبه كلّ الجهات، ذلك أنّ المحب وحتى تتجلى له حقيقة محبوبه ينبغي أن يكون حريصا دائما على ملازمة حركات التعبّد.

ج- المشاهدة: يكشف الشاعر في أبيات حائيته عن بلوغ الحقيقة المطلقة (المشاهدة) ونهاية معراجه الرّوحي و بلوغ علم التوحيد باتحاده الذي تجلّت فيه الذات الإلهية في مظاهر الموجودات ، فما كان إلاّ أن أشهدته الذات الإلهية حقيقة ذاته، فوجد ذاته في حضرتها بعد فنائه ومحوه لكلّ الصفات الذميمة ومنازلته الصفات الإلهية، وهنا إشارة إلى وحدة الشهود ((لأنّ ملازمة الشهود لا تمكن إلاّ لوجود الصحو الحاصل بعد السكر، فإنّ السكر يكون في أوائل الشهود قبل استقرار مقامه، فتلوح أنوار الشهود تارة وتنطفئ أخرى وعبرت السنة الصوفية عنها بالبوارق واللوائح واللوامع والطوالع والبوادي والبواد، ويستعقب هذه التلويحات وجود السكر لمصادفة نور القدم، ثمّ

طلحة الحديث و مصادمته إياها، فإذا زالت هذه الظلمة بالكلّية لاستقامة نور الشهود وتحقق معنى ظهور النور، لا يصادف نور التجلّي غير متجانس فلا ينتج السكر ولا يستقر مقام الشهود للصحو، لما كان الصحو نتيجة المحو، والمحو مقدمة رفع المغايرة، ورفع المغايرة سبب قبول تجلّي الذات)) [19]. وللأمير عبد القادر إشارة إلى هذه المشاهدة بقوله:

ما جَنَةَ الخُلْد إلا في مَجالسهمْ فيها ثمارٌ وَ أَطْيارُ وَ أَرْواحُ [20]

فعندما تشرب الشاعر خمرة محبوبه، نعم براحة في حضرة المحبوب الذي أفصح عن حسنه وجماله ما يجلّ عن الوصف فمن جمال تلك الصفات تحققت تلك اللذة التي كان يصبو إليها.

فالشاعر هنا بصدد الإعلام والإخبار عن بعض الحالات الشعورية التي حلّت به والتي صوّرت حالات حضوره بذاته ومحيطه من جهة ،ومن جهة أخرى عبّرت عن غيبته بنفسه وبمن حوله لاسيما وأنّ السّالك المريد في مسيرته الصوفية ((قد يكون حاضراً بالحقّ، لأنّه إذا غاب عن الخلق حضر بالحقّ، على معنى أنّه يكون كأنّه حاضر، وذلك لاستيلاء ذكر الحقّ على قلبه، فهو حاضر بقلبه بين يدي ربه تعالى، فعلى حسب غيبته عن الحق يكون حضوره بالحق، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة. فإذا قيل: فلان حاضر، فمعناه أنّه حاضر بقلبه لربه، غير غافل عنه، ولا ساهٍ، مستديم لذكره. ثم يكون مكاشفاً في حضوره على حسب رتبته بمعانٍ يخصه الحق سبحانه وتعالى بها. وقد يقال لرجوع العبد إلى إحساسه بأحوال نفسه، وأحوال الخلق، إنّه حضر أي رجع عن غيبته فهذا يكون حضوراً بخلق، والأول حضوراً بحق))[21].

هكذا إذن استطاع الأمير عبد القادر أن يجسد لوناً معيناً من الكتابة الإبداعية يفصح عن حالاته الوجدانية والتي بدت إماراتها على الجوارح لشدة وقعها على النفس، هذه الحالات التي انعكست في الحب والشوق والصبابة والسكر... وغيرها من النوازع التي عبرت عن حالاته الإيمانية والوجدانية و التي تمخضت عن علاقته الطاهرة بالمولى الكريم، وهو يخوض غمار الحياة الصوفية.

و حتى يطعم شعره بفنية الغزل الصوفي راح عبد القادر يجسد مختلف المقامات التي عايشها متّخذا من بعض الأساليب الإنشائية وسيلة لتطعيم هذا اللون من الشعر مثل: النداء: **يا مَنْ إذا اكْتَحَلَتْ عَيْني بطَلْعَتهمْ**...،الطلب: **وَ اطْلُبْ إلهَكَ ما تَرْجو، فإنَ لهُ خَزائنا ما لهَا قَفْلُ، وَمفْتاحُ** ، فاستطاع أن يعكس رغبته الصوفية في الانصياع لأوامر المولى، والتحفيز بذلك على الأعمال المأمور بها من زهد و توكل، وصبر وإخلاص ... وهلم جر.

أمّا عن أحواله، فقد اتّخذ سبيلاً آخر، إذ اكتست لغته الصوفية اللغة العذرية **– شأنه في ذلك شأن صوفية الإسلام–** ملتمساً التعبير عن رغباته وتصوير عواطفه الباطنية و وصف مواجيده.

و كان الخيال بذلك المجال الأنسب الذي يمكن من خلاله تخطي هذا العالم للظفر بالعالم الآخر أين يتنعم الشاعر بالسعادة الأبدية .

و للوصول إلى هذه الغاية انتهج الشاعر الأسلوب الخبري والذي من خلاله فقط يمكن الإقرار ببعض الحقائق و المستجدات التي عاينها لحظة السكر الصوفي و معايشته الحضرة المقدسة ، ممّا شكّل تلاحماً وتناغماً وانسجاماً واتساقاً بين أبيات القصيدة أسفر عن تحقيق بنية هذا النمط الشعري، الأمر الذي جعل هذا الأخير يتميز بمنظومته الفكرية والتي وافقت لغته الذوقية والمعرفية.

إذن وبعد هذه المعاينة الموجزة لتجربة الشاعر يبدو أن الأمير لم يكن مجاهدا و شاعرا وأديبا مثقفا و حسب وإنما أثبت انتماءه الصوفي في ظل تلك المجاهدات المضنية التي عايشها وهو يصبو إلى بلوغ الحقيقة الإلهية حيث السعادة الأبدية.

هوامش البحث :

* قصيدة "مسكين لم يذق طعم الهوى"(البحر البسيط) من القصائد الصوفية التي نظمها الشاعر الجزائري الأمير عبد القادر ، و يطلق عليها أيضا " الحائية " نسبة إلى رويها (الحاء).

للمزيد: ينظر: ديوان الأمير عبد القادر الجزائري، جمع و تحقيق و تقديم: د العربي دحو، منشورات تالة – الأبيار الجزائر ، الطبعة الثالثة،2007،ص.114 ،115، 116.

1- ابن منظور الأنصاري ،لسان العرب ، المجلد الثاني، منشورات محمد علي بيضون ، دار الكتب العلمية، بيروت ، لبنان،ص.112.

2- نفسه ، ص 112

3- الأمير عبد القادر الجزائري ،كتاب المواقف في التصوف و الوعظ و الإرشاد،مج1 ، الطبعة الثانية منشورات دار اليقظة العربية ، مطبعة ألف باء ،دمشق ،(1386-1387هـ) (1966-1967م) ، ص.407

4- فؤاد صالح السيد، الأمير عبد القادر الجزائري متصوفا وشاعرا، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر 1985،ص.147

5- النفري (محمد بن عبد الجبار)، المواقف والمخاطبات، تحقيق أثر أريري، هيئة الكتاب، القاهرة، 1985، ص. 115.

6- عبد الله أحمد بن عجيبة، ، معراج التشوّف إلى حقائق التصوّف، تح وتق، عبد المجيد خيّالي مركز التراث الثقافي المغربي، الدار البيضاء، 1224هـ. ص. .33

7- أمين يوسف عودة، تأويل الشعر وفلسفته عند الصوفية، عالم الكتب الحديث، جدارا للكتاب العالمي، عمان، الأردن، الطبعة الأولى، 1428هـ/2008م ، ص. 74.

8- عبد الرزاق بن أحمد القاشاني، شرح تائية ابن الفارض دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005م/1426هـ، ص. 35.

9- عبد الرحمن بن خلدون ،المقدمة، تح و تق. علي عبد الواحد الوافي ،دار نهضة مصر للطبع و النشر ، القاهرة 1979 ص.45

10- ديوان الأمير عبد القادر الجزائري،جمع و تحقيق و تقديم:د العربي دحو، منشورات تالة – الأبيار الجزائر، الطبعة الثالثة،2007،ص.115

11- المصدر نفسه ،ص.116

12- أبو نصر عبد الله بن علي السّراج الطوسي، اللمع، دار الكتب الحديثة بمصر ومكتبة المثنى ببغداد، الطبعة الأولى، 1380هـ/1960م ص. 78.

13- الديوان ،(م،س) ص.115

14- نفسه ، ص. 115

15- أبو القاسم القشيري، الرسالة القشيرية، منشورات محمد علي بيضون ،دار الكتب العلمية ،بيروت لبنان،ط1. 1418هـ/1998م ، ص 321

16- الديوان ، (م،س) ص.116

17- عبد الحكيم حسان ، التصوف في الشعر العربي ، نشأته و تطوره حتى آخر القرن الثالث الهجري، مكتبة الأنجلو المصرية، مطبعة الرسالة،1954،ص.299

18- الديوان ،(م،س) ص.114

19- عبد الرزاق بن أحمد القاشاني، كشف الوجوه الغر لمعاني نظم الدّر تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 2005م.ص. .108

20- الديوان ،(م،س) ص.116

21- الرسالة القشيرية ، ص106